أمثلة من الترجمة

Natascha Wodin
Sie kam aus Mariupol

Rowohlt Verlag, Reinbek bei Hamburg 2017
ISBN 978-3-498-07389-3

صفحات 38-47 & 9-17

ناتاشا ڤودين

"جاءت من ماريوبول"

ترجمة هبة شلبي

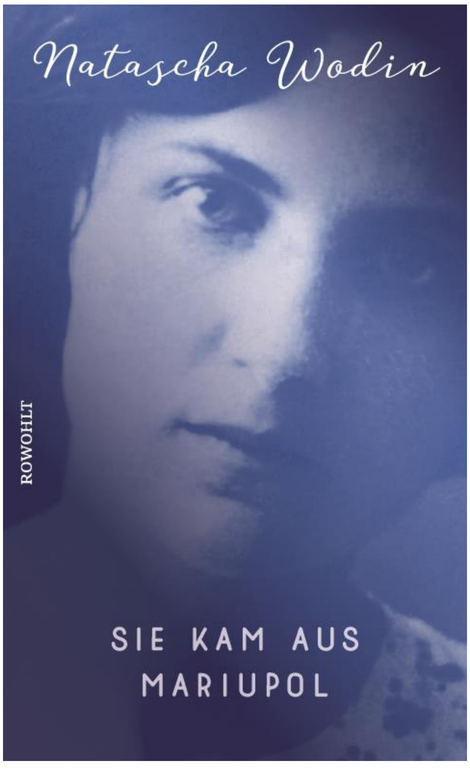

© 2017 Litrix.de

لم أقصد سوى التسلية عندما أدخلت اسم أمي في محرك البحث على شبكة الإنترنت الروسية. حاولت كثيرًا على مر العقود أن أجد لها أي أثر؛ فراسلت الصليب الأحمر وغيره من الجهات التي توفر خدمة البحث عن المفقودين، وكذلك أرشيفات ومؤسسات بحثية ذات صلة، بل ووصل الأمر أن أرسلت خطابات لأشخاص في أوكرانيا وفي موسكو لا أعرفهم بالمرة، وبحثتُ في قوائم ضحايا وسجلات مطموسة، ولكني لم أنجح قط في العثور على أي أثر لها أو حتى على أي دليل ولو مبهم على حياتها في أوكرانيا أو على وجودها قبل ولادتي.

تم ترحيل أمي وأبي إبان الحرب العالمية الثانية من ماريوپول للعمل القسري في ألمانيا، وكانت في الثالثة والعشرين من عمرها آنذاك. وكل ما علمته هو أنها قد وظِّفت للعمل في مصنع للأسلحة تابع لمجموعة شركات فليكّ في لايبتسيج. وبعد أحد عشر عامًا من انتهاء الحرب انتحرت أمي في مدينة صغيرة بألمانيا الغربية، في مكان ليس ببعيد عن مستوطنة "للأجانب المشردين"، وهو الاسم الذي كان يطلق آنذاك على عمَّال السخرة. ولم يكن هناك على الأرجح من يعرفها في العالم بأسره باستثنائي أنا وأختي. بل وحتى نحن لم نكن نعرفها حق المعرفة. لم نكن سوى أطفال حين غادرت المنزل في أحد أيام شهر أكتوبر عام ١٩٥٦ دون أن تتفوه بكلمة واحدة ولم تعد مرة أخرى. كانت أختي آنذاك قد بلغت لتوها الرابعة، وكنت أنا في العاشرة من العمر. ولم يبق منها في ذاكرتي أكثر من مجرد صورة شبحية، بل كان شعورًا أكثر منه ذكرى.

في هذه الأثناء، كنت قد تخلَّيت عن بحثي عنها منذ فترة طويلة. كانت قد وُلِدَت منذ أكثر من تسعين عامًا ولم تعش سوى ستة وثلاثين، ولكنّ سنوات عمرها لم تكن مجرد سنوات، بل تلك التي شهدت الحرب الأهلية والتطهير الأعظم والمجاعات في الاتحاد السوفيتي وسنوات الحرب العالمية الثانية والحقبة النازية. وقعت تحت وطأة ديكتاتوريتين، إحداهما في أوكرانيا في عهد ستالين في البداية ثم في ألمانيا في عهد هتلر. كان دربًا من الخيال أن أتمكَّن بعد كل هذه العقود من العثور على أثر لسيدة شابة في بحر الضحايا المنسيين، وأنا لا أعرف عنها سوى اسمها.

في إحدى ليالي صيف عام ٢٠١٣ أدخلت هذا الاسم على شبكة الإنترنت الروسية، فأعطاني محرك البحث نتيجة على الفور. دام ذهولي لثوانٍ قليلة. كان اسم أمي من بين العوامل التي جعلت عملية البحث أكثر صعوبة، لأنه كان اسمًا أوكرانيًا شائعًا تحمله مئات، بل وربما آلاف من الأوكرانيات. وعلى الرغم من أن الشخصية التي أظهرها لي محرك

البحث كانت تحمل اسم الأب نفسه وتُدعى يوڤينيا ياكوڤلِف إڤاشتشِنكو، إلا أن اسم ياكوڤ، وهو اسم والد أمي، كان أيضًا من الأسماء الشائعة جدًا، لذا لم يكن اكتشافي هذا ليعني شيئًا بالضرورة.

فتحت الرابط وقرأت المكتوب: "يوڤينيا ياكوڤلِف - سنة الميلاد: ١٩٢٠ - مكان الميلاد: ماريوپول." حدَّقت إلى خانة البيانات وكانت هي الأخرى تحدِّق إليّ أيضًا. رغم قلة معلوماتي عن أمي، إلا أنني كنتُ أعرف أنها من مواليد مدينة ماريوپول عام ١٩٢٠. أيعقل أن تولد في مدينة صغيرة، مثل ماريوپول آنذاك، فتاتان بنفس الاسم ونفس اللقب وفي نفس العام وأن يكون "ياكوڤ" هو اسم كلا الأبوين؟

على الرغم من أن اللغة الروسية هي لغتي الأصلية، وأنني لم أنسها تمامًا على مر حياتي وعدتُ لأتحدث بها منذ أن انتقلت إلى برلين بعد التوحيد بصفة شبه يومية، إلا أنني لم أكن متأكدة ما إن كان هذا هو اسم أمي حقًا الذي أقرأه على الشاشة أم لعله كان يتراءى لي كالسراب في الصحراء، هكذا كنت أشعر وأنا أتصفح الإنترنت الروسي. كانوا يتحدَّثون هنا بلغة روسية بدت لي كما لو كانت لغة أجنبية، أو لغة جديدة سريعة التغيُّر، تأتي دائمًا بمفردات جديدة وتمتزج يوميًا باصطلاحات أمريكية جديدة يكاد يكون من المستحيل التعرُّف على أصلها بعد أن تُكتَب بالأبجدية السيريلية. حتى أن هذا الموقع الذي كان يتطلَّع إليّ الآن عبر شاشة حاسوبي كان يحمل عنوانًا إنجليزيًا: "اليونانيون الآزوف". كنت أعرف أن ماريوپول تقع على بحر الآزوف. ولكن، من أين جاء هؤلاء "اليونانيون الآزوف" فجأة؟ لم أسمع من قبل عن أية علاقة بين أوكرانيا واليونان. لو كنتُ إنجليزية لباتت مقولة "It’s all greek to me" هي التعليق المناسب في هذا الموقف.

كانت معلوماتي عن ماريوپول في ذلك الوقت تكاد تكون منعدمة. وخلال محاولات بحثي عن أمي لم يخطر ببالي قط أن أتقصَّى عن المدينة التي وُلِدَت بها. حملت ماريوپول اسم "چدانوف" على مدى ٤٠ عامًا، واستعادت اسمها القديم مرة أخرى بعد انهيار الاتحاد السوفيتي، وقد ظلت بالنسبة لي مكانًا قابعًا بداخلي لم أعرضه لضوء الواقع قط. لطالما شعرت في إطار تصوراتي ورؤاي الخاصة عن العالم كما لو كنت في دياري، وكان الواقع الخارجي يهدد هذا البيت الداخلي، لذا كنتُ أتحاشاه ما دام ذلك ممكنًا.

في طفلوتي لم يكن أحد يفرِّق بين جمهوريات الاتحاد السوفيتي، وقد حدَّدت تلك الحقيقة ملامح الصورة الأولى التي رسمتها عن مدينة ماريوپول، فقد اعتُبِر جميع سكان الجمهوريات الخمسة عشر من الروس. كانت روسيا قد انبثقت في العصور الوسطى من أوكرانيا، بالتحديد من إمارة روس الكييڤية، التي كانت تُسَمى بـ "مهد روسيا" أو "أم المدن الروسية"، وعلى الرغم من ذلك، كان أبواي أيضًا يتحدَّثان عن أوكرانيا كما لو كانت جزءًا من روسيا؛ أكبر بلاد العالم، على حد قول أبي، إمبراطورية شاسعة تمتد من ألاسكا إلى بولندا وتحتل سدس سطح كوكب الأرض. وفي مقابل ذلك لم تكن ألمانيا سوى بقعة على الخريطة.

أما بالنسبة لي، فقد اندمج الجانب الأوكراني بالروسي. وحينما كنتُ أتخيَّل أمي في حياتها السابقة في ماريوپول، كنتُ دائمًا ما أتصورها تسير وسط الثلج الروسي؛ مرتدية معطفها الرمادي ذا الطراز القديم والياقة وقفازاتها المخملية؛ وهو المعطف الوحيد الذي كنت أراها ترتديه. فأتخيلها تسير عبر شوارع مظلمة يكسوها الجليد إلى مكان فسيح تجتاحه العواصف الثلجية منذ قديم الأزل. إنها الثلوج السيبيرية التي كانت تغطي روسيا بالكامل وكذلك مدينة ماريوپول، كانت تغطي إمبراطورية البرودة الأبدية الرهيبة التي كان يحكمها الشيوعيون.

إن الصورة التي رسمتها في مخيلتي وأنا طفلة عن مسقط رأس أمي ظلت صامدة بداخلي، في تلك الغرف المظلمة، على مدى عقود. وحتى بعدما علمتُ بفترة طويلة أن روسيا وأوكرانيا بلدان مختلفان وأن أوكرانيا لا تمتُّ لسيبيريا بصلة، ظلَّت فكرتي عن ماريوپول كما هي لم تتأثَّر، على الرغم من أنني لم أكن حتى على يقين ما إن كانت أمي من تلك المدينة حقًا أم إن كنتُ قد نسبتها إليها لإعجابي الشديد باسمها. ولم أكن حتى واثقة في بعض الأحيان ما إن كانت هناك مدينة تحمل هذا الاسم على الإطلاق أم كانت من اختراعي، كغيرها من الأمور الكثيرة التي ترتبط بأصولي.

وفي يوم من الأيام كنتُ أتصفَّح إحدى الجرائد فاستوقفتني صفحة الرياضة حين وقع نظري بالصدفة على كلمة ماريوپول. ذكر الخبر أن هناك فريق كرة قدم ألماني قد سافر إلى أوكرانيا للعب ضد فريق إيليتشِفِتس ماريوپول. أن يكون للمدينة فريق كرة قدم خاص بها كانت فكرة مثيرة للانتباه في حد ذاتها، حتى أنها جعلت صورة ماريوپول التي أحملها بداخلي تتداعى على الفور كالفطر المتعفن. ما من شيء في الدنيا يمكن أن يثير اهتمامي أقل من كرة القدم، ولكن كرة القدم بالتحديد هي التي جعلتني ألتقي بماريوپول الحقيقية لأول مرة. اكتشفت أنها مدينة ذات طقس معتدل بدرجة كبيرة، وهي عبارة عن ميناء على بحر الآزوف، أكثر بحار العالم ضحالةً ودفئًا. قيل أن شواطئها رملية طويلة وعريضة وتضم مزارع كروم وعددًا لا حصر له من حقول عباد الشمس. وأشار المقال كذلك إلى أن لاعبي فريق كرة القدم الألمان كانوا يعانون في ظل طقسها الصيفيّ الذي ناهزت درجة حرارته الأربعين درجة.

بدت لي الحقيقية أقل واقعية بكثير من تصوراتي عنها. وشعرت لأول مرة منذ وفاة أمي أنها أصبحت كائنًا منفصلًا عني. كنت أراها في الماضي وسط الثلوج، أما الآن فأصبحت أراها تسير في أحد شوارع ماريوپول مرتدية ثوبًا صيفيًا خفيفًا فاتح اللون، يكشف عن ذراعيها وتنتعل صندلًا. بدت لي كفتاة شابة لم تترعرع في أظلم وأبرد مكان بالعالم بل بالقرب من شبه جزيرة القرم على بحر جنوبي دافئ تحت سماء لعلها تشبه تلك التي تعلو البحر الأدرياتيكي الإيطالي. لم أر أشياء أكثر تناقضًا من أمي والجنوب، أمي والشمس والبحر. كان عليّ أن أنقل كافة تصوراتي عن حياتها إلى درجة حرارة مختلفة ومناخ مختلف. فإذا بالمجهول القديم يتحوَّل إلى مجهول جديد.

اكتسبتُ بعدها بسنوات صورة واقعية عن مدينة ماريوپول التي عاشت فيها أمي من رواية روسية قصيرة لم أعد أتذكر اسمها:

"كان الثلج المبتل يتساقط خلف نافذة فندق پالميرا، وعلى بعد خطوات البحر، الذي لا أجرؤ على وصف حاله بالهيجان، بل كان بالأحرى يصدر صوت بقبقة وأزيز، ذلك البحر الضحل.. التافه.. الممل. وكانت مدينة ماريوپول الصغيرة غير الملحوظة تتاخم المياه وتضم كنيسة بولندية ومعبدًا يهوديًا، فضلًا عن ميناء تفوح منه رائحة كريهة ومخازن وخَيمة مثقوبة تابعة لسيرك متنقِّل قائم على الشاطئ وحانات يونانية ومصباح خافت مهجور معلَّق أمام مدخل الفندق المذكور."

بدا لي ما قرأته كما لو كان رسالة خاصة عن أمي. فقد رأت كل هذا بأم عينها. لا بد وأنها مرَّت في يوم من الأيام بفندق پالميرا، ربما كانت ترتدي معطفها الرمادي وتخطو في الثلج المبلل نفسه ورائحة الميناء الكريهة تملأ أنفها.

© 2017 Litrix.de

واكتشفت المزيد من الأشياء المذهلة عن ماريوپول من ذلك الموقع الذي توصَّلت إليه على شبكة الإنترنت. في الوقت الذي وُلِدَت فيه أمي كانت المدينة لا تزال متأثرة بالثقافة اليونانية. أهدتها الإمبراطورة كاثرين العظمى في القرن الثامن عشر للمسيحيين اليونانيين من سكان خانية القرم آنذاك. ولم يكن حتى منتصف القرن التاسع عشر مسموحًا لمجموعات عرقية أخرى بالاستيطان فيما سُمِي آنذاك بـ "ماريوپيولي". ولازالت هناك أقلية يونانية تعيش في المدينة حتى يومنا هذا، وقد قادني اسم أمي لسبب ما إلى منتدى مخصص للأوكرانيين ذوي الأصول اليونانية. ثارت في نفسي شكوك مبهمة. لم يكن لديّ سوى ذكريات طفيفة غير واضحة المعالم عما قالته أمي عن حياتها في أوكرانيا، إلا أنه رسخ في ذاكرتي أن أمها إيطالية.لم يكن بإمكاني بالطبع أن أتأكد بعد هذه الفترة الطويلة ما إن كانت هذه المعلومة ذكرى بالفعل، أم مجرد خاطرة عشوائية ترسَّبت في ذهني. أو ربما تخيَّلت في طفولتي أن لديّ جدة إيطالية وحولتها لبطلة لحكاياتي المفبركة المليئة بالمغامرات، وقد بدا لي أن هذا الاحتمال هو الأوقع. أو ربما كانت تلك الجدة الإيطالية مجرد فكرة انبثقت من رغبتي القوية آنذاك في أن أتبرأ من أصولي الروسية – الأوكرانية وأكون شيئًا لست عليه. وأتساءل الآن في نفسي ما إن كان من الممكن أن تكون ذاكرتي قد خانتني وأن تكون والدة أمي يونانية وليست إيطالية. ألا يتفق هذا الاحتمال مع ما علمته للتو عن ماريوپول؟ أمن الممكن أن تكون تلك اليونانية قد تحوَّلت في ذاكرتي مع الوقت إلى إيطالية دون أن ألاحظ، ربما لكون إيطاليا قد أصبحت في شبابي مكانًا أتوق للذهاب إليه؟

بدا لي وكأنني دخلت فصلًا جديدًا ومظلمًا في رواية أصولي، وكأنني تجذَّرت فجأة في أرض أكثر غربة، لم يعد بالإمكان التعرف عليها بشكل قاطع. حدَّقت إلى اسم أمي المكتوب على الشاشة وشعرت حينها أن الهوية المؤقتة التي كونتها لنفسي على مر حياتي انفجرت كفقاعة صابون. تلاشى للحظة كل شيء من حولي. وشعرت بالأمان مرة أخرى حين خطر لي أن أهمية الجذور اليونانية لـ "يوڤينيا ياكوڤلِڤنا إيڤاشتشِنكو" التي توصَّلت إليها تتلخص في كونها دليلًا على أن هذه السيدة لا يمكنها أن تكون أمي. فأنا واثقة تمام الثقة أنني لم أسمع من أمي كلمة "جريكي" قط، لو كنت سمعتها لكانت علقت في ذاكرتي باعتبارها كلمة غريبة واستثنائية في ظل عالم الثكنات الفقير المحاصر الذي كنَّا نعيش فيه، ورغم أنه لم يكن من السهل عليّ التصديق أن أمي لم تتحدَّث عن ماضي بلدتها اليونانيّ أبدًا، إلا أنني استخلصت من المعلومات الخلفية التاريخية للمنتدى أن الطابع اليوناني للمدينة كان لا يزال حاضرًا وبقوة خلال فترة حياتها في ماريوپول.

لم أعقد أملًا كبيرًا على الأمر، ففي كثير من الأحيان كانت تحرياتي تبوء بالفشل. ولكن، نظرًا لأن موقع " اليونانيون الآزوف" كان يوفر منصة للبحث عن الأقارب، فقد قررت رغم كل شيء أن أترك رسالة. إلا أنه حتى يتسنَّى لي ترك رسالة كان عليّ أن أقوم بالتسجيل على الموقع أولًا. لم يسبق لي أن قمت بالتسجيل على موقع روسي من قبل، وبدا لي من المستبعد أن أتخطَّى تلك العقبة التقنية. ولكنني تفاجأت بأن كل شيء سار بمنتهى السهولة، بل وأكثر سهولة بكثير من المواقع الألمانية. وبعد دقيقة واحدة أصبح بإمكاني الدخول على الموقع.

لم يكن بإمكاني كتابة الكثير في نموذج طلب البحث سوى اسم أمي ومسقط رأسها.استخلصت من اسم عائلتها، "ڇاكوڤلِڤنا"، أن أبيها كان اسمه "ڇاكوڤلِف"، إلا أنني لم أعد أتذكَّر اسم أمها قبل الزواج. وكنت على علم بأنه كان لديها أخ وأخت، ولكني لم أكن أعرف اسميهما أيضًا. كان لديّ قسيمة زواج أوكرانية تفيد بأن أمي تزوجت

من أبي في يوليو عام ١٩٤٣ في مدينة ماريوبول المحتلَّة من القوات الألمانية. وأفادت بطاقة عمل صادرة من مكتب العمل بلايبتسيج أنه تم ترحيلها مع أبي إلى ألمانيا عام ١٩٤٤. كان هذا كل ما أعرفه عنها.

إلا أن السؤال كان: عمن كنت أبحث في حقيقة الأمر؟ كان من شبه المستحيل أن يكون أخاها وأختها على قيد الحياة حتى الآن، إلا إذا كانا من المعمِّرين. وحتى أبنائهما، هذا إن كان لديهما أبناء، أي أبناء خالتي وخالي المفترضين، ينبغي أن يكونا قد تقدَّما الآن في السن مثلي تمامًا. وكان من غير المحتمل أن يكونا قد عرفا أمي، بل ومن المشكوك فيه أن يكونا قد علما بوجودها على الإطلاق أو يكون شخص قد أخبرهما عنها. فقد كان من الخطورة آنذاك، بل وبعدها بعشرات السنين، أن يكون لأحد صلة قرابة بشخص مثل أمي، أي بشخص ربما قد تم ترحيله طوعًا إلى ألمانيا، أو أقله لم يتسنَّ له الفرار من العمل القسري لصالح العدو الحربي ولو عن طريق الانتحار إذا لزم الأمر، وهو ما طلبه ستالين من الوطنيين الحقيقيين. لم يكن هناك أحد يحكي لأبنائه عن مثل هؤلاء الأقارب الذين اعتُبِروا خونة لوطنهم، وذلك حتى لا يعرضهم للخطر.

صـ ٣٨ إلى ٤٧

وكلما بحثتُ أكثر كلما صادفني المزيد من الفظائع، التي بدا وكأن أحدًا لم يسمع عنها من قبل. لم أكن أنا فقط التي لا تزال تجهل الكثير من الأمور، بل ومن أصدقائي الألمان، الذين كنتُ أعتبرهم أشخاصًا مستنيرين لديهم دراية بالتاريخ، لم يكن هناك أحد يعرف عدد المعسكرات النازية التي كانت قائمة إبَّان فترة الرايخ الألماني. فافترض البعض أنها عشرون، والبعض الآخر مائتان، في حين اتجه القليلون إلى تقدير عددهم بألفيّ معسكر. ولكن وفقًا لدراسة أجراها متحف النصب التذكاري لضحايا محارق اليهود في واشنطون، فإن عددهم قد بلغ ٤٢٥٠٠ معسكر دون احتساب المعسكرات الملحقة والصغيرة، من بينهم ٣٠٠٠٠ معسكر مخصص للعمل القسري. وفي حوار مع جريدة "تسايت" نُشِر في ٤ مارس ٢٠١٣ قال المؤرخ الأمريكي جيوفري مِجارجي، أحد المساهمين في هذه الدراسة، إن هذا العدد المروِّع من المعسكرات يؤكد أن جميع الألمان تقريبًا كانوا على علم بوجود تلك المعسكرات، حتى وإن لم يستوعبوا أبعاد دور النظام وراءها أو يطَّلعوا في كل مرة على الأوضاع التي كانت سائدة فيها. إنها نفس القصة القديمة: لم يكن أحد يعرف شيئًا. رغم أنه لا بد وأن تلك البلاد، التي ضمت ٤٢٥٠٠ معسكر، بل وأكثر من ذلك، كانت عبارة عن معسكر جولاج واحد.

تهت أكثر وأكثر في أعماق تاريخ العالم، في مآسي القرن الـ٢٠ المخيفة. إن التقارير التي كانت تتطرق إلى العمل القسري في الرايخ الثالث كانت مليئة بالفجوات وأوجه التضارب والتناقض. أفلت الموضوع من بين يدي وخرج عن سيطرتي على نحو متزايد. تساءلت في نفسي: ألم يفتْ الأوان؟ هل ستدوم أنفاسي حتى أعطي هذا الموضوع الهائل حقه؟ وهل هناك كلمات على الإطلاق لوصف كل هذا؟ كلمات تصف حياة أمي التي فُقِدَت في ثنايا الهوية المجهولة، والتي يمثِّل مصيرها مصائر الملايين الآخرين؟ كنت قد نسيت بشأن موقع "اليونانيون الآزوف" منذ

فترة طويلة حين وصلني إيمايل من شخص بدا اسمه غريبًا وكأنه كتابة هيروغليفية كشفت عن شخصية قسطنطين ذي اللقب اليوناني. وقد كتب فيه الآتي:

"السيدة الفاضلة ناتاليا نيكولايڤنا! بحثت في الأمر مرة أخرى واستنتجت أنه من الوارد جدًا أن تكون "يوڤينيا ياكوڤلِڤنا إڤاشتشِنكو" المسجَّلة في أرشيفنا هي أمكم بالفعل. دعوني أعود بحديثي إلى عهد بعيد. في القرن التاسع عشر عاش في ماريوپول مالك أراض أوكراني من تشِرنيجوفشتشينا، كان ينتمي لطبقة النبلاء ويُدعى "إيڤان ياكوڤلِڤيتش إيڤاشتشِنكو". هذا هو جدكم. وكان في الغالب من أوائل النازحين غير اليونانيين الذين استقروا آنذاك في ماريوپول، ولم تزل في ذلك الوقت بلدة تجارية صغيرة على نهر الآزوف تضم خمسة آلاف نسمة بالكاد. اشترى هناك بيتًا في شارع ميتروپوليتسكايا من أجله هو وأسرته وأصبح مستشارًا في البلاط الملكي ومالكًا للسفن ومديرًا لمصلحة جمارك الموانئ. وامتلك مع مرور الوقت عقارات عديدة في المدينة وافتتح بعض المحال التجارية وأصبح رجلًا رفيع الشأن. تزوج من سيدة تُدعى "آنَّا فون إرِنشترايت"، لا نعلم عنها سوى أنها من طبقة نبلاء ألمان البلطيق وعاشت بين عاميّ ١٨٤٥ و ١٩٠٨، وذلك وفقًا لسجلات الكنيسة.

كان لدى أجدادكم الأوائل ستة أبناء، صبيَّان وأربع فتيات. وكان الابن الأكبر هو "ياكوڤ"، جدكم والد أمكم. ووفق سجلات الكنيسة توفي شقيقه الأصغر لِونيد في سن السادسة والعشرين بمرض الصرع. لا نعرف شيئًا عن الأختين، "يِلنا" و"ناتاليا"، ولكننا نعرف أن الأخت الثالثة، "أولجا"، تزوجت من عالم النفس والفيلسوف المرموق "تشِلپانوڤ" الذي كانت أصوله يونانية. وهذا يفسر وصول اسم والدتكِ وكذلك بيانات عن جميع أصهار " تشِلپانوڤ" إلى أرشيف موقعنا.

أما الشقيقة الرابعة لجدكم، عمتكم الكبرى "ڤالانتينا"، فكانت من صفوة أهل الفكر في ماريوپول، ولازال اسمها ذائعًا في المدينة حتى الآن. ويمكنكم معرفة المزيد عنها من المقال المرفق طيه. ولكننا لا نعلم بكل أسف عن جدتكم شيئًا، سوى أنها كانت تُدعَى "ماتيلدا يوزيفوڤنا". وكانت خالتكم تُدعَى "ليديا" ووُلِدَت عام ١٩١١، وذلك وفقًا لسجلات الكنيسة. أما خالكم، فكان اسمه سِرچي وجاء إلى الدنيا عام ١٩١٥. كان سِرچي مغنيًا أوبراليًا، غنَّى على على الجبهة في الحرب وحصل على وسام شرف. تجدون النسخة الرقمية من شهادة التقدير مرفقة طي هذا الإيمايل أيضًا.

صدر مؤخرًا كتاب عن "چورچي تشِلپانوف" وقد تحدَّث في مواضع عدة عن عائلة زوجته. كانت عمتكم الكبرى "أولجا" تعاني على ما يبدو من مرض عقلي وكانت تبلغ من العمر ثلاثة وأربعين عامًا حين ألقت بنفسها من النافذة في موسكو. سنلتمس من المؤلف الحصول على نسخة من أجلكم.

لم يعد أحد من أشقاء أمكم في أغلب الظن على قيد الحياة. ولكن لن يكون من السهل التوصُّل إلى ذريتهم أيضًا، أولًا بسبب انتشار اسم "إيڤاشتشنكو" انتشارًا واسعًا وثانيًا لكوننا لا نعلم شيئًا عن خالتكم "ليديا" سوى اسمها. ودائمًا ما يكون من الصعب البحث عن الشخصيات النسائية في حالة غياب اللقب. لذلك أقترح أن نركِّز بحثنا في البداية على خالكم سِرچي، أي على ذريته مثلًا. ويمكننا أن نلجأ في البداية إلى القائمين على تحرير البرنامج التلفزيوني "انتظرني"، فهو شكل ذائع من البرامج المتخصصة في البحث عن الأقارب، ويُبَث في كل من روسيا وأوكرانيا."

لم أستوعب ما قرأت. من هذا الذي يُدعى قسطنطين؟ أهو شبح من أشباح الإنترنت؟ أم شخص معتوه؟ أم شخص يحب المخاطرة؟ هل أراد أن يغريني بأسلاف من النبلاء ويعيدني إلى أحد عصور روسيا حيث كان من الرائج أن يسعى الناس إلى إثبات أي صلة نسب بطبقة النبلاء، ليعشمني بعدها بالمزيد من المقتطفات من "معلوماته" مقابل دفعة مقدَّمة من المال؟ بدا لي من المستبعد تمامًا أن تكون أمي قد انحدرت من شبكة العلاقات التي وصفها وانتمت للطبقات العليا. فتلك السيدة التي كنتُ أعرفها لم تكن حتى لتنتمي لأدنى الطبقات، ناهيك عن تلك الأعلى مكانة. كانت أبعد ما تكون عن جميع الطبقات، إنسانة سلافية متدنية، شخصية منبوذة يرمونها بالحجارة في الشوارع. لو كانت أبدت أية إشارة عن انحدارها من أصل أرستقراطي لكنت التقطتُ تلك الإشارة بشغف في خضم شوقي الطفولي البائس إلى التقدير الاجتماعي واحتفظت بها في نفسي. شعرت كما لو كان كاتب هذا الإيميل قد اطَّلع على هلاوس طفلوتي ويحكي لي تلك القصص التي كنتُ أختلقها آنذاك. يبدو أنني بصدد واحدة من أكثر جوانب الأدغال الرقمية غموضًا.

فتحت المرفق الأول وقرأت عنوان المقال المكتوب بخط عريض: ""ڤالنتينا إيڤانوڤنا أوستوسلاڤسكايا – ابنة مدينتنا التي لم يطوِها النسيان". وأسفل العنوان بورتريه بيضاوي الشكل لسيدة. عجزت عن التقاط أنفاسي، فأنا أعرف تلك السيدة، كنت أعرفها بالفعل بقدر ما أستطيع أن أتذكَّر. كانت لها صورة مطبوعة موجودة في درج مكتبي بالمنزل، وكانت أمي قد كتبت على ظهرها "جدي واثنين من المعارف". إن تلك السيدة التي كانت تتطلَّع إليّ الآن عبر الشاشة كانت أصغر سنًا بقليل وأكثر نحافة ولكن ملامح وجهها لم تختلف بأي حال من الأحوال؛ ذلك الوجه التقليدي الذي اشتهر به المثقفون، عظام الخدين عالية والملامح حادة والشفاه تعكس بعض الزهو. وفي هذه الصورة أيضًا كانت ترتدي ثوبًا داكنًا ذا عنق عالٍ ونظارة مثبَّتة على الأنف. شعرت كما لو كان البحر يمور في الخارج أمام النافذة. فجأة أصبح كل شيء من حولي جديدًا وغريبًا عليّ. حدَّقت إلى وجه السيدة على شاشة جهازي وأخذت أستوعب شيئًا فشيئًا، كما لو كان بالتصوير البطيء، ما يعنيه الأمر. كانت تلك الصورة هي الدليل المذهل والخيالي على أن "يوڤينيا ياكوڤلِڤنا إڤاشتشِنكو" التي وجدتها في منتدى "اليونانيون الآزوف" هي أمي بالفعل. وإن تلك السيدة التي بدت صورتها مألوفة لي، والتي وصفتها أمي بـ "إحدى المعارف" كانت في الحقيقة عمتها، إحدى شقيقات أبيها.

استعرضت المقال سريعًا بأنفاس لاهثة. واكتشفت أن "ڤالنتينا إيڤانوڤنا أوستوسلاڤسكايا"، المولودة عام ١٨٧٠، كانت قد أسَّست مدرسة ثانوية خاصة للفتيات من الأسر الفقيرة. وذكر المقال أنها كانت تقاتل في سبيل العدالة الاجتماعية طيلة حياتها، والفضل يعود لها في منح العديد من الفتيات في ماريوپول الفرصة للوصول إلى التعليم العالي والإفلات من حياة الجهل والفقر. ويبدو أنها كانت على صلة وثيقة بشقيقها ياكوڤ، والد أمي، الذي كان قد درس المحاماة والتاريخ وعمل إلى جانب دراسته مع البلاشفة ولكن في السر. وفي الثالثة والعشرين من عمره اعتقلته شرطة القيصر السرية ونفته إلى سيبيريا لمدة عشرين عامًا. وذكر المقال أيضًا أن "ڤالنتينا إيڤانوڤنا أوستوسلاڤسكايا"، عمة أمي، كانت متزوِّجة من "ڤاسيلي أوستوسلاڤسكي"، وهو رجل من عائلة روسية نبيلة فاحشة الثراء تشتهر بمستواها التعليمي وتحررها وانفتاحها على العالم. وقرأت أيضًا أنه بعد الثورة مات هذا الرجل من الجوع كغيره من الملايين الآخرين الذين فقدوا حياتهم جراء المجاعة الكبرى التي شهدتها أوكرانيا. وخلال الحرب الأهلية احترقت المدرسة الثانوية التي أسستها "ڤالنتينا"، وتوفيت بعدها بفترة قصيرة وهي في الثامنة والأربعين من

عمرها بمرض الأنفلونزا الإسبانية التي كانت متفشِّية آنذاك. أصبح ابنها، "إيڤان أوستوسلاڤسكي"، مهندسًا بارزًا متخصصًا في الديناميكا الهوائية وكانت كتبه مقررة على طلاب هندسة الفضاء الجوي في أنحاء الاتحاد السوفيتي. وفي إحدى الصور يظهر رجل أكبر سنًا، يشبه كلاب السانت برنارد بملامحه الحادة وعينيه البراقتين اللتين تشعان ذكاء. وقيل أيضًا إن ابنة "ڤالنتينا"، "إرينا أوستوسلاڤسكايا" وصلت إلى منصب نائب وزير التعليم العام، إلا أنها اعتُقِلَت في عهد ستالين باعتبارها عدوة للشعب وتم نفيها إلى سيبيريا.

وهناك شيء آخر اكتشفته من خلال المقال. فقد قيل إن جدي الكبير، "إيڤان"، الذي جاء من "تشِرنيجوفشتشينا" وكان من كبار ملاك الأراضي، أدمن الكحول شيئًا فشيئًا وخسر ثروته بأكملها في ماريوبول، وأنه اختفى دون أثر في مرحلة ما وترك زوجته، "آنَّا فون إرِنشترايت"، مفلسة ووحيدة مع ستة أطفال. وتفيد إحدى الشائعات بأنه هرب إلى الهند على إحدى سفن الشحن التي كان يمتلكها في السابق.

شعرت وكأنني بحاجة لرأس ثانٍ ليتسنى لي تصوُّر كل هذا واستيعابه. اعتدت حتى هذه اللحظة على رؤية الحقيقة تتحوَّل إلى أكذوبة، ولكن تبيَّن أن لأكذوبات طفولتي جوهرًا حقيقيًا، وهو ما كان يدعو للضحك. إن أكثر ما هزني هو الانهيار الذي عايشته أمي ولم يكن ليخطر على البال أبدًا. لِمَ لم تتحدَّث عن أصولها قط؟ لِمَ لم تذكرها ولو بكلمة واحدة؟ لماذا أنكرت حتى صلة قرابتها بعمتها "ڤالنتينا" ووصفتها بـ "إحدى المعارف"؟ طالما كنت أنظر إلى أمي باعتبارها امرأة من عامة الشعب تنحدر من أسرة فقيرة، إلا أن أصولها الحقيقية ،والتي لا تزال تبدو لي كما لو كانت اكتشافًا غامضًا، أضافت إلى مصيرها بعدًا جديدًا تمامًا من الوحشية، بعدًا لا يسعني تصوره. بأصابع مخدَّرة ضغطتُ على المرفق الثاني الملحق برسالة منتدى "اليونانيون الآزوف". ظهر أمامي على الشاشة النسخة الرقمية لوثيقة مهترئة ذات لون بني وعليها طباعة روسية مطموسة بشدة، لم أتمكن من قراءة المكتوب عليها إلا بعد أن قمت بتكبيرها عدة مرات. وقد كُتِبَ فيها الآتي:

"يُمنَح وسام النجمة الحمراء لـ "سِرچي ياكوڤلِفيتش" المولود عام ١٩١٥، عضو الحزب، خدم في الجيش الأحمر منذ عام ١٩٣٩، برتبة رقيب، مرابط على الجبهة منذ أيام الحرب الأولى، وقد تم تجنيده من كييف، ولم يتعرَّض لأية إصابات. من خلال الموسيقى الروسية الكلاسيكية حظي الرفيق إڤاشتشِنكو بالتقدير بوصفه عازفًا منفردًا في فرقة الغناء، "الراية الحمراء"، حيث كان يعزف آريات من الأوبرات الروسية للجنود والضباط المرابطين على الجبهة. أصبحت "الأغنية الهندية" من أوبرا "سادكو" لريمسكي كورساكوڤ وآريا جاليتسكي من أوبرا "الأمير قسطنطين" لألكساندر بورودين هي الألحان المفضَّلة في الوحدات والقوات العسكرية التي كان الرفيق إڤاشتشنكو يعزف أمامها. لم يخش المخاطر والاضطرابات وكان يواصل أداءه حتى في ظل أحلك الظروف معرضًا حياته للخطر في بعض الأحيان. طالما كان أداؤه على أعلى مستوى من الجودة الفنية، لذا أكنّ له الجنود على الجبهة كل الحب والتبجيل. كان الرفيق يتحلَّى بأخلاقيات مثالية في العمل وكذلك بالالتزام، وهو موالٍ لحزب لينين وستالين ويخدم وطنه الاشتراكي بتفانٍ.

وقد حصل بالفعل على وسام الاستحقاق عن دفاعه عن ستالينجراد. وبموجب هذا تمنحه الحكومة السوفيتية وسام النجمة الحمراء. رئيس قسم الصحافة والدعاية والتحريض، العقيد بـ. فـ. پروكوفيڤ."

قضيت عدة أيام وكأنني في حالة صدمة. فعلت ما أفعله عادة: جلست في الشرفة وتمشَّيت على البحر وطهوت بعض الطعام، ولكن.. لم أكن أنا من يفعل ذلك، بل كنتُ أشاهد سيدة غريبة عني وهي تقوم بمهامها. كنتُ أشاهدها وهي تحدِّق لساعات باستغراق إلى الجدار أو تنفجر فجأة وبلا سبب في نوبة من الضحك. بل ووصل بي الأمر إلى حد المشاركة دون سابق إنذار في محادثات غير مفهومة مع أشخاص غير مرئيين، فألوِّح بيدي فجأة أو أعارض بشدة أو أعبِّر حتى عن موافقتي بإيماءة من رأسي. لو أن شخصًا غريبًا رآني لاعتبرني مضطربة عقليًا.
قرأت رسالة قسطنطين واطَّلعت على الملفات المرفقة مرارًا وتكرارًا، وكنت بحاجة دومًا إلى أن أؤكد لنفسي بأنني لا أحلم. ظلَّت عيناي عالقتين على اسم جدتي في ذهول. هكذا كان اسم جدتي، والدة أمي، إذن: "ماتيلدا يوزيفوڤنا"؛ امرأة تُدعى "ماتيلدا" ووالدها يُدعى يوزيف. كان "ماتيلدا" اسمًا مؤنثًا لم أسمعه قط في اللغة الروسية. وقد كان لدى قسطنطين صلاحية للدخول على السجلات الرقمية لكنيسة ماريوپول، فأخبرني أن "ماتيلدا يوزيفوڤنا" كانت تعتنق الديانة الكاثوليكية الرومانية. حين تقترن تلك الحقيقة باسم ماتيلدا، فإنها تعد مؤشرًا واضحًا على أن جدتي تنحدر من أصول إيطالية، خاصة وأن هناك ما يشير إلى أن اسم أبيها المشتق من اسم "يوزيف" هو النسخة الروسية من اسم "چوزيپ". إلا أن تلك الأمور لم تجد مكانًا في إدراكي بعد، لأن ثمة أشياء كثيرة كانت قد انهالت عليّ فجأة.

بعثوري على اسم والدة أمي شعرت وكأنني عثُرت على أمي نفسها. "ماتيلدا يوزيفوڤنا" ... إنها السيدة التي بكتها أمي بحرقة، والتي انطلقت في رحلة طويلة متوجِّهة إلى ابنتها المنفية "ليديا" ولم تعد مجددًا. بدا وكأنني باكتشافي هذا قد محوت هذا الجزء من شقاء أمي، الذي تمثَّل في حزنها وشعورها بالألم على أمها المفقودة، وكان أحد الأسباب التي جعلتها غير قادرة على البقاء على قيد الحياة.
أخذت أتخيَّل مرارًا وتكرارًا أنني أركض إلى أمي حاملة إليها الرسالة الآتية: "وجدتُها مجددًا، "ماتيلدا يوزيفوڤنا"، إنها أمكِ، ماتيلدا، هل عرفتِها ؟ وجدتها حقًا، ها هي، انظري...

إنه لسحر الأسماء. فجأة، دبَّت الروح مجددًا في خالي وخالتي، وشعرت أنه من البديهي والمتوقع أن تكون اسماهما سِرچي وليديا بالتحديد. وتعجَّبت من أنني لم أتذكَّر هذين الاسمين من تلقاء نفسي. بدا الاسمان، ليديا وسِرچي وكأنهما جزآن يكمِّلان اسم والدتي بشكل طبيعي. خالتي ليديا وخالي سيرچي. قرأت شهادة تقدير سيرچي مرارًا وتكرارًا، فقد كانت هي الدليل على حصوله على وسام النجمة الحمراء. وأخذت أبحث فيها عن شواهد على حياته من شأنها أن تكون شواهد على حياة أمي هي الأخرى.